شعر الإمام السجاد عليه السلام - دراسة موضوعية فنية

الأستاذ المساعد الدكتور
سميه حسنعليان
جمهورية إيران الإسلامية ـ جامعة أصفهان
shassanalian@yahoo.com

١ـ المقدمة:

نظراً لأهمية معرفة الإمام عليه السلام ودوره البارز في صلاحية كونه قدوة صالحة للناس، فعلى كل إنسان أن يتعرف على المعارف التي تركها الإمام لنا. ولا شك أن البحث في حياة الأئمة الأطهار عليهم السلام وكلامهم بحر بعيد الغور وأن لكلامهم نوافذ وصدى يبقى متألقا في كل الأجيال.

ومن جهة أخرى فيلاحظ المتأمل في كلام الإمام السجاد عليه السلام يجد أن له لغة متميزة بروعة بلاغتها وتنوع أساليبها. ولذلك اشتهر الإمام بأسلوبه البلاغي في خطابه الأدبي ولا سيما في أدعيته للخالق سبحانه. فلا ينحصر ما وصل إلينا من تراث الإمام السجاد على الصحيفة السجادية الشهيرة بل هناك مجموعة من الأشعار نسبها المؤرخون إلى الإمام؛ وإن توجد هناك اختلافات وتعدد الآراء في أن هل نسبة هذه الأشعار للإمام صحيح أم لا؟ وهل كان الإمام ينظم الشعر أم كان يستشهد به؟! فنحن هنا لا ندخل في خضم هذا الموضوع وفي تفاصيله؛ بل سندرس هذه الأشعار دراسة موضوعية فنية بناءً على هذه الفكرة أن الأشعار هي للإمام عليه السلام وأنشدها الإمام للغرض التربوي وبيان المعنى الذي كان ينويه، وأصبح الشعر لديه من أدوات التبليغ لأنه لا شك في علم الإمام بدور الشعر في إثارة عواطف الناس وإيقاظ ضمائرهم وتحريك عقولهم.

ومن هذا المنطلق يستهدف هذا البحث إلى دراسة ديوان الإمام السجاد عليه السلام دراسة موضوعية فنية، ليجيب عن الأسئلة التالية:

- ما أهم الموضوعات التي قد ذكرها الإمام السجاد عليه السلام في أشعاره؟
- ما الأدوات الفنية والأدبية التي استخدمها الإمام في شعره والتي وهبت شعره

جمالية خاصة؟

والمنهج الذي توخاه البحث للإجابة عن الأسئلة هو الوصفي ـ التحليلي.

وبالنسبة إلى خلفية البحث فلا بد من الإشارة إلى أن هناك كثيرا من الدراسات والبحوث التي اهتمت بالإمام السجاد عليه السلام وشتي جوانب حياته والصحيفة السجادية، أثره الخالد في التراث الإسلامي. ولكن بالنسبة إلى أشعار الإمام وديوانه فلم نكد نحصل على دراسة شاملة فهناك دراسة واحدة فقط درست رثاء الإمام الحسين عليه السلام في أشعار الإمام السجاد عليه السلام في صفحات قليلة للباحثة معصومه نعمتي قزويني والباحث پدرام عليمرادى، وهو بحث منشور في مجلة آفاق الحضارة الذسلامية، السنة ١٦، العدد الأول، ١٤٣٤، صص ٩٩-١١١.

٢ـ موقف أهل البيت عليهم السلام من الشعر والشعراء:

غني عن التوضيح أن للشعر مكانة خاصة عند العرب منذ العصر الجاهلي؛ إذ ((كان الشعراء بمنزلة الحكام، يقولون فيرضى قولهم، ويحكمون فيمضي حكمهم وصار ذلك فيهم سنة يقتدى بها وآثار يحتذى عليها. وكان العرب إذا أحوجوا إلى معرفة معنى حرف مستصعب ولفظ نادر التمسوه في الشعر الذي هو ديوان لهم متفق عليه مرضي بحكمه مجتمع على صحة معانيه وأحكام أصوله محتج به على ما اختلف فيه من معاني الألفاظ وأصول اللغة)) (الرازي، ١٩٥٧م، ١: ٩٢).

وقيل ما إن ظهر الدين الإسلامي ولم يكن أول الإسلام حتى ((انصرف العرب عن الشعر بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا)) (ابن خلدون، د.ت، ٥٧٤).

وإن خالف هذا الرأي فريق آخر من العلماء ورفضوا القول بضعف الشعر الإسلامي وأكدوا إن النهضة الشعرية قد استمرت في الإسلام إن لم تكن تقدمت خطوات بما هيأ لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض (فروخ، ١٩٦٩م، ١: ٢٥٧؛ نالينو، د.ت، ١٠٤).

أما موقف النبي (صلوات الله عليه) من الشعر فهو واضح جلي إذ نهى من نوع معين من الشعر وعن موضوعات خاصة لا تتعدى هجاء الدعوة أما فيما عدا ذلك فإن الرسول أقر بقول الشعر وطلب من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه

بأسلتحتهم وسمح لهم بنظمه في معظم الأغراض الشعرية. وهناك حديث عن النبي يبين منزلة الشعر وهو: ((الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام (العاني، ١٩٩٦م، ٤٢، نقلا عن الأدب المفرد، ١٢٥).

وانطلاقا من هذا الحديث وصلت إلينا أكثر من حادثة تبين سنة النبي حين كان يرى خروج الشعراء على القيم والمفاهيم الإسلامية الجديدة أو أي عودة منهم إلى ما كانوا عليه من قيم ومفاهيم الجاهلية حيث كان ينكر عليهم ذلك ويوجههم نحو الصحيح من القول والحسن من الكلام بمقياس إسلامي جديد (المصدر نفسه، ٤٣).

وأما موقف أهل البيت عليهم السلام فهم الذين تربوا في البيت النبوي الشريف فلم يتعدّ موقف النبي تجاه الشعر والشعراء، إذ تأسوا به أمام الشعر والشعراء، فكانوا يهتمون به كأداة من أدوات التبليغ، عالمين بدور الشعر في إيقاظ الضمائر وإثارة العواطف، مرحبين بالشعراء، ومحسنين نزلهم، مزدوين إياهم بالصلات والكرامات، و((كانوا يقدمون الشعر أحيانا على العبادة والدعاء في أشرف الأوقات وأعظم المواقف كما يستفاد من قول الإمام الصادق عليه السلام وفعله بالهاشميات للكميت لما دخل عليه في أيام التشريق بمنى فقال له: جعلت فداك ألا أنشدك؟ قال: إنها أيام عظام! قال: إنها فيكم، فلما سمع الإمام مقاله بعث إلى ذويه فقربهم إليه وقال: هات فأنشده لاميته من الهاشميات فحظي بدعائه له وألف دينار وكسوة)) (الأميني النجفي، ١٣٩٠هـ، ٢: ٢٠).

ولأئمة الدين فكرة صالحة صرفت في هذه الناحية (صلاح المجتمع) وهي كدستور فيها تعاليم وإرشادات إلى منهاج الخدمة للمجتمع وتنوير أفكار المثقفين وتوجيهها إلى طرق النشر والدعاية ودروس في توطيد أسس المذهب وكيفية احتلال روحيات البلاد وقلوب العباد وبرنامج في صرف مال الله وتلويح إلى أهم موارده)) (المصدر نفسه، ٢: ٢١).

ووسط هذا فقد أخذ الشعر الحسيني منزلته الخاصة على صعيد الأدب الرسالي والشعر الملتزم بحب آل البيت عليهم السلام والذي له من دور تربوي وعقائدي في النفوس. إذ هذا النوع من الشعر يثير العاطفة الدينية في قلوب محبي أهل البيت كما يرفع همهم للدفاع عن القيم الإسلامية والإنسانية. ولذلك حرض الأئمة عليهم السلام الشعراء على هذا النوع من الشعر كما قال أبو عبد الله لجعفر بن عفان الطائي: ((ما من أحد قال في الحسين شعرا فبكى

وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له)) (الحر العاملي، ١٤١٢هـ، ١٤: ٥٩٤).

وقد دعا أهل البيت عليهم السلام ـ كما هو واضح من سيرتهم ـ الشعراء إلى إنشاد الشعر في فضائل أهل البيت ومن هنا قد أخذ الشعر المدحي منحى جديدا. وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: ((ما قال فينا مؤمن شعراً يمدحنا به إلا بنى الله تعالى له مدينة في الجنة أوسع من الدنيا سبع مرات)) (الصدوق، ١٣٦٣، ١: ٧).

فالملاحظة لا بد من الوقوف عندها في تبيين موقف النبي والأئمة الأطهار من الشعر والشعراء أنهم عليهم السلام قد اهتموا بنقد الشعر وتقييمه وتمييز الرديء منه من جيده، و((عن أنس بن مالك روى أن النبي كان قد حضر في مجلس لم يكن فيه إلا الخزرجيين فطلب منهم أن ينشدوا ما قرضه قيس ابن خطيم فأنشده واحد منهم إلى أن قال: أجاد لديهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب، فسأل النبي عن كيفية الإنشاد وأصالته وهل ينطبق ما أُنشد على الإنشاد الأولي الأصيل أم لا؟)) (القمي، ٢٠٠٧م، ١٢٣).

٣ـ الإمام السجاد عليه السلام:

علي بن الحسين عليهما السلام الحلقة الرابعة في سلسلة الإمامة وشذا عطر من الروضة المحمدية تلقبت بألقاب اشتقت من صفاته كـ((زين العابدين، السجاد، سيد الساجدين، ذو الثفنات)). ومع أنه كان من أزهد الناس وأعبدهم إلا أنه كان أكثر الناس خوفا من الله سبحانه وهذا ما هو واضح في سيرته وسلوكه وظاهر في أدعيته.

ولا غبار على الدور البارز للإمام السجاد عليه السلام وخاصة لصحيفته في تعليم المؤمن أدب الخطاب مع الله سبحانه ((لولا علي بن زين العابدين وصحيفته لما علم أهل الإسلام طريق المخاطبة مع الله والمكالمة معه في مقام عرض الحوائج فهو الذي علمهم سبيل المحاورة مع الخالق الكريم وبث الشكوى إليه في المهام والشدائد فلهما رضي الله عنهما حق التعليم على الناس إلى يوم القيامة)) (الإجارة الكبيرة، مرعشي، شهاب الدين، ٤٥٤، عن الصحيفة السجادية مقدمة الشيخ يوسف الصانعي، ٥).

وذلك لأن الأمة الإسلامية مرت في عصر الإمام السجاد عليه السلام بمنعطف تاريخي خطر ولذلك اختار الإمام إستراتيجية ناجحة وهي أسلوب الدعاء بحيث ساعد هذا الأسلوب

الإمام للسير في مشروعه التربوي والأخلاقي والعقدي والعبادي. حيث ((تميز عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بالانفتاح على الحضارات الأخرى ودخول الأفواج الكبيرة في رحاب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف والفتوحات ذات الغنائم والمكاسب المادية المؤدية إلى المسخ الثقافي والأخلاقي بالتدرج فكانت المرحلة تتطلب من الإمام أن يقف أمام هذا المسخ الخطير وكانت جهوده العلمية والتربوية هي الحصن المنيع أمام المسخ الثقافي وأما المسخ الأخلاقي فكان يطلب جهدا من نوع آخر توجه إليه الإمام ووجه إليه الأمة بشكل عام والجماعة الصالحة بشكل خاص ومن هنا برزت في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الدعاء التي ميزتها عن سائر المدارس الإسلامية)) (لجنة التاريخ، ١٤٢٣هـ، ٢: ٢٨٣).

وذلك لأنه لم يتسن للإمام السجاد عليه السلام أيام البطش الأموي أن يزاول مهام إمامته بشكل علني لا سيما وإنه ابن أعظم ثائر على الدولية الأموية بل ابن أعظم ثائر على الظلم عرفه التاريخ لذا لا زالت أعين السلطة وجواسيسها تراقب تحركاته وسكناته فكان النهج العبادي والدعائي أسلوبا إصلاحيا لا يثير حساسية السلطة تجاهه ولا يعد في نظرها يشكل خطرا على مصالحها حتى إن السلطة الأموية عندما أمنت جانبه لقبته بـ ((علي الخير)) فمضى الإمام قُدما في مشروعه الرسالي دون أن تعترض طريقه معارضات الدولة الأموية الحاكمة الظالمة. (الجلالي، ١٤١٨هـ، ٧٣). وبما أنه قد ذكر فضل الإمام علي في إتمام المعارف لذلك عبر بالمثنى (لهما وعنهما) في كلامه.

الصحيفة السجادية مجموعة من الأدعية عن الإمام السجاد عليه السلام فهي من ذخائر التراث الإسلامي ومن مناجم كتب البلاغة والتربية والأخلاق والأدب في الإسلام ونظرا لأهميتها البالغة فقد سماها كبار رجال الفكر بأخت القرآن الكريم وأنجيل أهل البيت وزبور آل محمد ومما زاد في أهميتها أنها جاءت في عصر طغت فيه الأحداث الرهيبة والمشاكل السياسية التي أحاطت بالمسلمين وانشغل المسلمون بالتكتل الحزبي والسياسي سعيا وراء المصالح والأطماع وهجروا روحانية الإسلام وتعاليمه وآدابه وحكمه (القزويني، ٢٠١١م، ٢٨٨).

ففضلا عن الصحيفة السجادية التي بقيت ضمن التراث الخالد الإسلامي عن الإمام السجاد عليه السلام فيذكر التاريخ الأشعار المنسوبة إلى الإمام قد جُمعت في ديوان شعري حققه ماجد بن أحمد العطية إذ جمع المؤلف ٣٨٧ بيتا من الأبيات المنسوبة إلى الإمام.

وقارئ هذه الأشعار يدرك أن صاحبها يهتم بالجانب التربوي للمخاطب، كما هو شأن مشروع الإمام في رشد الناس وهدايتهم.

٤ـ دراسة موضوعية في شعر الإمام السجاد عليه السلام:

سنشير في هذا القسم من البحث إلى أهم الموضوعات التي يضم ديوان الإمام السجاد عليه السلام بين دفتيه؛ ألا وهي:

٤- ١- عاشوراء وما جرى على أهل البيت عليهم السلام من مصيبة في الطف:

كما قد ورد في التاريخ الإسلامي وفي حياة الإمام السجاد عليه السلام أنه قد عاش الكارثة العظمى التي حلت بأهل البيت في حادثة الطف وشارك أباه في الشجون والآلام، وعلى الرغم مما كان يعاني منه من شدة المرض إلا أنه استوعب كل تلك المأساة بشعوره المرهف وعاطفته اليقظة. ولم تكن خطب الإمام السجاد عليه السلام هي التي عرفت للناس إثم ما اقترفوه في حق أهل البيت عليهم السلام فقط، بل الأشعار التي بقيت من الإمام أيضا قد تحتوي على ذكر مصيبة كربلاء. من أهم المضامين التي تندرج تحت هذا الموضوع هي:

عظمة المصيبة:

قال الإمام راثيا أباه مصورا ما نزل بأهل البيت من مصيبة، شاكيا إلى جده رسول الله:

إلى جدنا نشكو عداة تحكموا ... ونالوا بنا والله كل منـاء

ويا جدنا أرادوا أبي متذللا ... قتيلا وفي الأحشاء حر ظماء

وقد رفعوا رأسا فوق ذابل ... ما البدر يبدو في علو سماء

وذكره ((جدنا)) تأكيد على أن الإمام من البيت النبوي وكيف تجرأ الأعداء أن يفعلوا بهم ما فعلوا.

كما خاطب الإمام مصيبه عاشوراء مصورا إياها إنسانا يُخاطَب، قائلا أنها قد أورث الإمام شجنا وحزنا طويلين:

يا وقعة الطف قد أورثتني حزنا ... والله يهتك أستار المسيئنا

وقال الإمام متعجبا مما وقع في كربلاء وما أتى الزمان وأهله على آل بيت النبي

إذ حملوهم على الأقتاب العارية، سبايا وبعد كل ما شاهدوه من القتل والجرح والنار و..:

ساد العلوم فما ترضى بذا العرب ... وصار يقدم رأس الأمة الذنب

يا للرجال لما يأتي الزمان به ... من العجيب الذي ما مثله عجب

آل الرسول على الأقتاب عارية ... وآل مروان يسري تحتهم نجب

وكما صوّر عظم المصيبة وكبرها في الأبيات التالية أيضا؛ إذ أصبحت النساء أرامل، والرجال قد ذبحهم الأعداء، والأطفال يتامى لم يبق لهم من يراعيهم:

أيا جدنا أما الرجال فذبحوا ... أيا جدنا هذي النساء أرامل

فلم يبق للنسوان يا جد قائم ... ولم يبق للأيتام يا جد كافل

ونلاحظ أن الإمام يصور محنته في الأسر قائلا:

أقاد ذليلا في دمشق كأنني ... من الزنج عبد غاب عنه نصيره

وجدي رسول الله في كل مشهد ... وشيخي أمير المؤمنين وزيره

فيا ليت لم أنظر دمشقا ولم ... يراني يزيد في البلاد أسيره

وهنا يتبين لقارئ الأشعار عظمة المصيبة في نفسية الإمام السجاد إذ يصور نفسه الذي كان ابن سيد شباب أهل الجنة أسيرا كعبد زنجي، وكما يذكر القارئ قول الإمام عندما سئل عن أشد المواقف في مصيبة الطف، إذ قال: ((الشام الشام الشام)) (شريف كاشاني، ١٣٨٥.ش، ٤١٢).

فالملاحظة لا بد من الوقوف عندها فهي أن الألفاظ كـ ((الحزن، والدموع، والقتيل، والمصيبة و...)) شائعة في ديوان الإمام وهو أمر طبيعي كما قال القرطجاني: ((وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل، مبكي المعاني، مثيرا للتباريح، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة)) (القرطجاني، ١٩٦٦م، ٣٥١).

عتاب الناس وذمهم:

إذ خاطب الناس قائلاً:

يا أمة السوء لا سقيا لربعكم ... يا أمة لم تراع جدنا فينا

لـــو أننـــا ورســـول الله يجمعنـــا ... يـــوم القيامـــة مـــا كنـــتم تقولونـــا

تســـيرونا علـــى الأقتـــاب عاريـــة ... كأننـــا لم نشـــيد فـــيكم دينـــا

نلاحظ أن الألفاظ مليئة بالذم والعتاب؛ إذ يدعو الإمام على الناس ويناديهم بـ ((أمة السوء)) لعدم مراعاة حق النبي في أهل بيته، ويوجه الإمام السؤال إليهم بأنهم كيف يردون على النبي إذا سألهم يوم القيامة عن فعلهم؟! وهم يدرون أن النبي لم يطلب أجرا من الناس إلا مودتهم في قرباه: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى ٤٢: ٢٣).

وكذلك يذكرهم في بيت آخر بأن جدهم هو النبي الذي كان أهدى الناس وهو الذي هداه الله به الناس أجمعين، وهذا التذكير يكون في صورة استفهام خرج عن معناه الحقيقي وقد أخذ معنى التقرير:

ألـــيس جـــدي رســـول الله ويحكـــم ... أهـــدى البريـــة عـــن ســـبل المضـــلينا

بيان حبه لأهل البيت وشهداء كربلاء:

كيف ينسى الإمام أهل بيته الذين استشهدوا في كربلاء وبذاك الوضع الفجيع والشنيع الذي لم ير التاريخ مثله. ولذلك في شعره هناك إشارات إلى هذه المحبة وأنه لن ينساهم أبدا وسيبكي دائما على فراقهم ومصيبتهم. قال عليه السلام:

فوالـــذي حجـــت الركبـــان كعبتـــه ... ومـــن إليـــه مطايـــا الكـــل ســـاعونا

لقـد جـرى حـبكم مجـرى دمـي فـدمي ... مـــن الفـــراق جـــرى ســـؤلا لبارينـــا

وقيل أن الإمام أنشد هذه الأبيات بعد أن كان يبكي على شهداء كربلاء وطلب مولى له أن يقل البكاء فقال له: ((ويلك إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبيا ابن نبي وله اثنا عشر ابنا فغيب الله واحدا منهم فشاب رأسه من الحزن وتحدب ظهره من الغم وذهب بصره من البكاء وابنه في دار الدنيا وأنا رأيت أبي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين فكيف ينقضي حزني؟!)) (الأسواني، ١٣٧٤هـ، ٧٥).

هجو بني أمية:

يهجو الإمام بني أمية بأنهم عرفوا حق أهل البيت عليهم السلام ولكنهم تعمدوا في تضييع هذه الحقوق، ولذلك يلجأ الإمام إلى الله تعالى وحكمه بينهم وهو خير الحاكمين:

لكم ما تدعون بغير حق ... إذا ميز الصحاح من المراض

عرفتم حقنا فجحدتمونا ... كما عرف السواد من البياض

كتاب الله شاهدنا عليكم ... وقاضينا الإله فنعم قاض

كما نلاحظ أن الإمام يهجو بني أمية؛ إذ الهجاء هو تعبير عن عاطفة السخط والا غضب تجاه شخص أو جماعة تنقم منها، وقال الإمام مشيرا إلى البدع التي ظهرت في المجتمع على يد بني أمية:

لقد حكموا فينا علوج أمية ... فقد ظهروا فينا عظيم البدائع

وهجاء الإمام من أشد الهجاء؛ إذ عف لفظه وصدق معناه (ابن منظور، مادة هجو)؛ ويتوفر فيه أساليب كالوضوح والبساطة وقلة الصنعة والتكلف والتلميح (ابن رشيق القيرواني، ١٩٦٣م، ١: ١٢٠).

٤ـ ٢ـ بيان فضل أهل البيت عليهم السلام:

وذلك لأن الإمام عليه السلام أعرف بغيره من فضل أهل البيت عليهم السلام وما لديهم من العلوم الإلهية، ولأنهم قد تربوا في البيت النبوي. والأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله تدل على مكانة أهل البيت المرموقة.

في الأبيات التالية قد أشار الإمام السجاد عليه السلام إلى فضل علي بن أبي طالب متضمنا شعره بالحديث النبوي إذ قال للإمام علي عليه السلام: ((يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) (المجلسي، ١٤٠٣هـ، ٣٩: ٦٢)؛ مشيرا إلى أن الميزات التي امتاز بها الإمام علي هي التي رفعت منزلته وشرفته:

فمن شرّف الأقوام يوما برأيه ... فإن عليا شرّفته المناقب

وقول رسول الله والحق قوله ... وإن رُغمت منه أنوف كواذب

بأنك مني يا علي معالنا ... كهارون من موسى أخ لي وصاحب

كما وصف أهل بيت النبي عليهم السلام في بيت آخر بأنهم العروة الوثقى ومعدن التقى، وهم الحبال الوثيقة التي يستطيع الإنسان أن يتوسل بها ليبلغ السعادة:

هم العروة الوثقى وهم معدن التقى ... وخير حبال العالمين وثيقها

يصف الإمام أهل البيت في أبيات أخرى بهذه الطريقة وهي أنهم هم الذين قادة الناس إلى الحوض ولا يفوز أحد إلا بهم ومن أحبهم فلا يخيب أبدا ومن غصب حق أهل البيت عليهم السلام فيكون موعده مع الله وهو يحاسبهم على ما ظلموا في حقهم:

لنحن على الحوض رواده ... نذوق ونسقي وراده

وما فاز من فاز إلا بنا ... وما خاب من حبنا زاده

ومن سرنا نال منا السرور ... ومن ساءنا ساء ميلاده

ومن كان غاصبنا حقنا ... فيوم القيامة ميعاده

وقد تفوح الأبيات برائحة التهديد لبني أمية وكل ظالمي حق أهل البيت عليهم السلام.

٤- ٣- الاعتبار بالدنيا وأهلها:

وهذا المهم يعود إلى أهمية القدوة ودورها التربوي إذ التربية الإسلامية ثمرة من ثمرات القرآن الكريم وكذلك دور التربية الوقائية لأن الدين الإسلامي دين الوقاية والإمام السجاد عليه السلام الذي تولى أمر تربية الأمة من خلال المضامين العالية في صحيفته السجادية لم ينس موضوع التربية في الأشعار التي جرت على لسانه. ونلاحظ أنه عليه السلام في البيت التالي يدعو الإنسان إلى التفكر في من مضى في الدنيا وكانوا أصحاب الأموال والقدرة:

تفكر أين أصحاب السرايا ... وأرباب الصوافن والعشار؟

ومن البدهي أن هذا التفكر يجعل الإنسان يغير أفكاره في الدنيا ولا يتعلق بها كثيرا لأنه لم يبق فيها أحد من القرون الماضية ولم تجعلهم أموالهم وقدرتهم مخلدين في الأرض.

كما يرى الإمام أن الشيب هو خير نذير للإنسان، وذلك أن الشعرة البيضاء عندما تظهر على رأس الإنسان فهي تنذره بأن وقت الرحيل يدنو ولا بد أن يجهز نفسه للرحيل:

كفاك مشيب رأسك من نذير ... وغائب لونه لون السواد

٤- ٤- الزهد في الدنيا وتركها:

الأئمة الأطهار عليهم السلام الذين لهم الولاية والإمامة على الناس بعيدون كل البعد عن الدنيا ومتاعها ومن يتبع طريقهم ويختارهم قدوة فيسلك مسلكهم فلا أهمية للدنيا في عينيه، وهذا ليس يعني أنهم لم يهتموا بالحياة بل كانوا ينظرون إليها ويهتمون بها من حيث أنهم

يتزودون بها للبلوغ إلى الآخرة والسعادة الأخروية وهذا هو معنى الزهد الحقيقي. وهذا من الموضوعات التي قد ذكرها الإمام السجاد عليه السلام في شعره داعيا الناس إلى ترك الدنيا:

ولا تطلب الدنيا فإنّ طلابها و إن نلت منها غبّة لك ضائر

كما يدعو الإنسان إلى التفكر في نفسه وعمله حيث كيف صرف وقته في طلب الدنيا وكسب رزقه حتى اقترب كثيرا إلى الهلاك والفناء وهو لا يشعر:

تفقّد نقص نفسك كلّ يومٍ فقد أودى بها طلب المعاش

ويرى الإمام عليه السلام من خصائص الزاهد أنه يجعل الموت نصب عينيه ويجهز نفسه للموت كل لحظة:

تأهب للمنية حين تغدو كأنّك لا تعيش إلى الرواح

وتتجلى أهمية هذا الموضوع في أن مثل هذا الإنسان لا يقترف الذنوب والمآثي ولا يعصي الله لأنه يعرف لعله لن يعيش حتى آخر هذا اليوم كي يستطيع أن يتوب ويعوض ما أتلفه.

٤- ٥- الشكوى من الدهر والزمان:

إنّ صراع الإنسان مع الزمن قضية لا تخصّ عصراً ما، وإنّما هي قضيّة عامة تصوّر موقف الإنسان من الزمن، سواء أكان هذا الموقف تصالحياً أم تصادمياً، وقد عبّر الشعراء في كلّ زمن وعصر عن مواقفهم وإحساسهم بالزمن بلغة شعرية راقية تبتعد عن التقريرية والمباشرة في كثير من الأحايين ويكاد يكون إحساسهم بالزمن قد قادهم إلى اختيار أسلوب إيحائي يقوم على الكشف عن رؤية الشعراء الداخلية للزمن من خلال إدراكهم له وإحساسهم به.

يرتبط الحديث عن الدهر بالحديث عن الموت والمصائب بشكل عام، إذ يصوّر الإمام الدهر عامل كلّ المصائب والمحن التي تحلّ على كرام الناس:

هو الزمان فلا تفنى عجائبه عن الكرام ولا تفنى مصائبه

فليت شعري إلى كم ذا تجاذبنا صروفه وإلى كم ذا نجاذبه

٤- ٦- عرض مجموعة من الأخلاقيات:

وذلك لأن علم الأخلاق من أهم العلوم الإنسانية لأن موضوع هذا العلم هو الإنسان

الذي يمتاز بأنه أشرف المخلوقات في العالم. ولهذه الأهمية نلاحظ تأكيد الأئمة عليهم السلام على هذه الأخلاقيات فضلا عن سيرتهم العملية مع الأصدقاء والأعداء والتي لو دلت على شيء لتدل على تزكيتهم وتربيتهم الصحيحة واهتمامهم الكبير بتربية الناس في المجتمع الإسلامي.

ولم يكن الصحيفة السجادية مليئة بمجموعة وصايا أخلاقية فقط، بل الأشعار التي نُسبت إلى الإمام السجاد عليه السلام فتحتوي على جم غفير من الوصايا التي تحض على تهذيب النفس والمحافظة على الفطرة الإنسانية ليصل بها الإنسان إلى المقامات العالية، فلا شك أن هذه الأشعار كذلك من أعظم تراث الأئمة عليهم السلام. إليك نماذج من هذه الأخلاقيات:

التقوى خير الزاد:

فما لك غير تقوى الله حرز ... ولا وزر ومالك من غياث

وإذا اتقى العبد ربه فتتوفر العزة له جميعها:

ما يصنع العبد بغير التقى؟ ... والعزّ كل العز للمتقي

التوبة هي علاج داء الذنوب:

تعالج بالتطبب كل داء ... وليس لداء ذنبك من علاج

سوى ضرع إلى الرحمن محض ... بنيه خائف ويقين راج

ويدعو الإمام الآثم إلى التوبة إلى الله وإظهار الندامة على الآثام وأن يطلب عفو الله ومغفرته بالتهجد طول الليل.

ويرى الإمام أن تسويف التوبة وتأجيله إلى المستقبل يجعل الإنسان يخسر حياته وعمره يفني وينظر إليه الموت والهلاك عن كثب:

فيا ويح نفسي كم أسوف توبتي ... وعمري فان والردى لي ناظر

ضرورة اجتناب التواني والكسل:

فليس أخو الرزانة من توانى ... ولكن من تشمر للفلاح

الاستعداد للموت والرحيل:

تأهب للمنية حين تغدو ... كأنك لا تعيش إلى الرواح

كما يدعو الإمام المخاطب بالجدية في العمل وعدم الغفلة:

فجد ولا تغفل فعيشك زائل وأنت إلى دار المنية صائر

المؤاخاة لله تعالى:

وإن صافيت أو خاللت خلا ففي الرحمن فاجعل من تؤاخي

التزام الصبر في الدنيا:

لباسي للدنيا التجلد والصبر ولبسي للأخرى البشاشة والبشر

لزوم بر الوالدين:

لأن الإمام يرى أن لا صلاح يتحقق لإنسان إلا بتطهير النفوس من المعاصي وكذلك بر الوالدين والنصح للآخرين:

وبر الوالدين بكل رفق ونصح للأداني والأقاصي

الاجتهاد في رضى الله:

وأصل الحزم أن تضحى وتمسي وربك عنك في الحالات راض

التحريض على فعل الخير:

توخّ من الأمور فعال خير وأكملها وأشرفها خصالا

التخلق بالأخلاق الحسنة:

وكن بشّا قريبا ذا نشاط وفي من يرتجيك جميل رأي

الابتعاد عن الشر:

بعيدا عن سبيل الشر سمحا نقيّ الكف عن عيب وثأي

لزوم معرفة الرب وطاعته:

من عرف الرب فلم تُغنه معرفة الرب فذاك الشقي

ما ضرّ في الطاعة ما ناله في طاعة الله وماذا لقي

لزوم ظهور الزهد الحقيقي في القول والفعل:

وما زهد التقي بحلق رأس وليس بلبس أثواب غلاظ

ولكـــن بالهـــدى قـــولا وفعـــلا وإذمـــان التخشـــع في اللحـــاظ

يؤكد الإمام هنا على أن الزهد الحقيقي يظهر في قول الزاهد وفعله، وليس الزهد بأن يلبس الإنسان ثوبا خشنا، أو يحلق رأسه و.. ويهتم بالظواهر دون أن يصلح كلامه وعمله.

والمتأمل في هذه الوصايا الأخلاقية يدرك أن كلها تعود إلى الكرامة الإنسانية وأهميتها في المشروع الإسلامي لهداية الإنسان؛ إذ خص الله الإنسان بالتكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ١٧: ٧٠) فجعله شريفا ذا كرامة في نفسه، وواضح أن المراد بالتكريم تخصيص الإنسان بالعناية وتشريفه بما لا يوجد في غيره وهو العقل، والإنسان بهذا العقل يستطيع أن يبلغ الكمال الإنساني ويستخدم استعداداته وسط المتضادات في المجتمع للتكامل والتقدم. كما أن في ظل هذه الوصايا الأخلاقية سيتحقق التعايش السلمي الذي ينطلق من الثقة ومن الرغبة في التعاون لخير الإنسانية بين الناس، وكأن الإمام عليه السلام هو الذي يجسد ما أمر به المنهج القرآني فكان هو نموذجا جمع بين النظرية والتطبيق، وكما كثف دعوته إلى إصلاح مكارم الأخلاق لبناء مجتمع صالح يقوم على أسس اجتماعية متينة تسودها ألوان المحبة والألفة.

٥ـ دراسة فنية في شعر الإمام السجاد عليه السلام:

من أهم اللمحات الأسلوبية التي ظهرت في أشعار الإمام السجاد عليه السلام هي:

٥- ١- التكرار:

التكرار ظاهرة من الظواهر التي تتسم بها اللغات عامة ولغتنا العربية خاصة وهو وجه من وجوه البلاغة والإعجاز كما يُعد عنصرا من عناصر تكوين الإيقاع فضلا عن دلالاته المعنوية التي تضفي على النص جرسا ونغما يوديان إلى تقوية المعنى وإيضاحه. إليك بعض النماذج لظاهرة التكرار في شعر الإمام السجاد عليه السلام:

تكرار اسم الاستفهام ((أين)): قال الإمام في شعره:

وأيـــن الأعظمـــون يـــدا وبأســـا وأيـــن الســـابقون لـــدى الفخـــار؟

وأيـــن القـــرن بعـــد القـــرن منـــهم مـــن الخلفـــاء والشـــم الكبـــار؟

وكأن الإمام يريد بهذا التكرار ((أين)) يلفت نظر المخاطب في الاعتبار بمن مضى في الدنيا ولم يبق له أثر.

وكذلك عندما يصور هول يوم القيامة يكرر كلمة ((الفراق)) مشيرا إلى ندامة الإنسان على ما يحصل له من فراق الأحبة وألا تلاقي بعده:

أتـــــدري أي يـــــوم ذاك فكـــــر وأيقـــــن أنـــــه يـــــوم الفـــــراق

فـــــراق لـــــيس يشـــــبهه فـــــراق قـــد انقطـــع الرجـــاء عـــن التلاقـــي

ومن الأساليب الفعالة التي استخدمها الإمام السجاد في شعره هو تكرار المعنى الواحد بأكثر من عبارة وأكثر من مرة في الأشعار، ومن خلال ذلك لا يمكن أن يتجاوزه الضمير بسهولة فيبقى في اللاشعور. فموضوع الاهتمام بالموت، والاستعداد قبل نزوله، وعدم المبالاة بالدنيا ومتاعها القليل و.. قد تكرر في مواضيع مختلفة من الديوان.

٥- ٢- التضاد:

من المظاهر التي اهتم بها النقاد في دراسة النصوص الأدبية هو لغة التضاد التي تقوم على التناقض وتستخدم التضاد أداة تعبيرية في تكوين بنية النص، وقد ظهر هذا الأسلوب في تراث الإمام الشعري، والذي يزيد فيه من إثراء الدلالة.

ولعل خير شاهد للتضاد من شعر الإمام عليه السلام وهو يصور الحالتين النقيضتين مستخدما التضاد لرسم الصورة بالكلمات هذه الأبيات التالية إذ قال:

إن الزمـــان الـــذي قـــد كـــان يضـــحكنا بقـــربهم صـــار بـــالتفريق يبكينـــا

حالـــت لفقـــدهم أيامنـــا فغـــدت ســـودا وكانـــت بهـــم بيضـــا لياليـنـــا

فهـــل تـــرى الـــدار بعـــد البُعـــد آنســـة أم هـــل يعـــود كمـــا قـــد كـــان نادينـــا

وظهر التضاد بين الألفاظ ((يضحكنا، يبكينا)) و((القرب، التفريق))، و((الأيام، الليالي))، و((السود، البيض)).

كما صور الإمام الدنيا وحلاوتها مشبها إياها بالشراب الذي قد امتزج بسم مهلك ويتعجب ممن يفضل البقاء في الدنيا التي تشبه الصحراء القفر على الآخرة التي كالبلد

الخصب؛ ولبيان هذه الصورة استخدم التضاد لتبيين الفرق الذي بينهما:

لقد مزجت حلاوتها بسم ... فما كالحذر عنها من ملاذ

عجبت لمعجب بنعيم دنيا ... ومغبون بأيام اللذاذ

ومؤثر المقام بأرض قفر ... على بلد خصيب ذي رذاذ

ولاستعمال التضاد في ديوان الإمام السجاد عليه السلام دلالات مختلفة منها أن التضاد يفيد معنى العموم؛ كما قال:

فكل ابن أنثى هالك وابن هالك ... لمن ضمنتها غربها والمشارق

وهنا التضاد بين الشرق والغرب يدل على أن العموم بمعنى أن كل من هو حي يعيش على الأرض من مشرقه إلى مغربه فيتذوق طعم الموت يوما ويموت.

وقد يرد التضاد فيحدث مقارنة بين نقيضين، ليزيد من الترغيب في أحدهما، والتنفير من الآخر، وذلك من خلال استحضارهما معاً، ولنتأمّل التضاد بين فوز من حسنت أفعاله، وشقاء من قبحت أفعاله:

فمن حسنت أفعاله فهو فائز ... ومن قبحت أفعاله فهو زاهق

وذلك كالبيت الذي ظهر التضاد بين الفئتين من الناس؛ الفئة التي تحب آل البيت وتعمل لسرورهم فيلاقي سرورهم؛ والفئة التي تسيئهم:

ومن سرنا نال منا السرور ... ومن ساءنا ساء ميلاده

والإمام لا يقول إن من يسيئهم فيلاقي إساءة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه ليس من أخلاقهم، بل يؤكد أن نتيجة هذه الإساءة تعود إلى المسيء وهذا بدهي وطبيعي.

٥- ٣- الاستفهام:

إذا كان الإستفهام في حقيقته السؤال عن شيء مجهول (مطلوب، ١٩٨٣م، ١: ١٨١) فإنه عادة يخرج عند الشعراء عن معناه الأصلي إلى معان أخرى فرعية تُستفاد من السياق فيعبر عن تجربة الشاعر الشعرية ويدل على المعنى الفرعي الذي ينويه. فنلاحظ أن في البيت التالي يخرج الاستفهام عن السؤال الحقيقي ويأخذ معنى **التوبيخ**، إذ سأل الإمام السجاد عليه السلام:

إلى كـــم تبتغـــي الشـــهوات طـــوراً وطـــوراً تكتســـي لـــين الريـــاش؟

ففي الحقيقة يوجه اللوم والعتاب إلى الذي يشتغل باللهو واللعب ويغفل عن الآخرة.

وأحيانا يخرج الاستفهام عن المعنى الحقيقي الموضوع له ليدل على **التعجب** ففي البيت التالي:

أيغتـــرّ الفـــتى بالمـــال زهـــواً وفيـــه مـــا يفـــوت مـــن اعتـــزاز؟

يسأل الإمام السجاد عليه السلام متعجبا من الفتى الذي يغترّ بما عنده من المال ويرى نفسه في درجة أعلى من الناس.

وكما يُظهر الإمام تعجبه في بيت آخر من الذي يظن أنه باق على الأرض وسيتمتع بالحياة السرمدية الخالدة ولكنه كالذي يبني صرحه الشامخ على أرض ليست بمستحكمة ويخاطب الإمام هذا الشخص بالمغبون؛ لأنه لا نصيب له في فعله هذا:

أيفي الســـبخات يـــا مغبـــون تـــبني؟ و مـــا يبقـــى الســـباخ علـــى الأســـاس

أو كلمة استفهام ((كيف)) لا يدل على الاستفهام الحقيق في البيت التالي:

فكيـــف تنـــال في الـــدنيا ســـرورا وأيـــام الحيـــاة إلى انســـلاخ

بل معناه التعجب وكذلك توبيخ الإنسان الذي يظن أنه ينال الفرح والسعادة في الدنيا مع أن أيام الحياة لدنيوية تمر وتنقضي ولا يبقى لها أثر.

وأحيانا يدل الاستفهام على **النفي** والسائل لا يبحث عن الجواب عندما يسأل وهذا النوع من السؤال قد ظهر في البيت التالي من ديوان الإمام السجاد عليه السلام إذ قال:

فكيـــف تطيـــق يـــوم الـــدين حمـــلاً لأوزار كبـــــائر كالرواســـــي؟

ففي الحقيقة يقول البيت إن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل عقوبة الذنوب التي أصبحت كبيرة كالجبال في عظمتها ولا يطيق حملها يوم القيامة.

٥- ٤- الصور البلاغية:

غني عن الذكر أن الصورة هي أساس كل عمل فني والخيال أساس كل صورة والصورة ابنة الخيال الشعري الذي يتألف عند الشعراء من قوى داخلية تفرق العناصر

وتنشر المواد ثم تعيد ترتيبها وتركيبها لتصبها في قالب خاص حين يريد خلق فن جديد متحد منسجم والقيمة الكبرى للصورة الفنية تكمن في أنها تعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق الموجود في الخير والجمال من حيث المضمون والمبنى بطريقة إيحائية خصبة (الرباعي، ١٩٨٤م، ١٥).

مع أن هناك اختلاف بين العلماء في تعريف الصورة وتعددت آراؤهم فيها كما قال البطل في تعريفها: ((الصورة تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها فأغلب الصور مستمدة من لحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية)) (البطل، ١٩٨٠م، ٣٠). ووهب عز الدين إسماعيل الشعور والوجدان دورهما الأساسي في الصورة: ((الصورة دائما غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر م انتمائها إلى عالم الواقع)) (إسماعيل، ١٩٧٨م، ١٢٧). ولكن مع تعدد هذه التعريفات والآراء في الصورة فاتفق النقاد والبلاغيون على أهميتها في العمل الأدبي وقد أشار القدماء إلى دورها في التعبير عن الأفكار من خلال حديثهم عن أنواع علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية و.. هنا نكتفي بقول أبي هلال العسكري في الصورة في بيانه حد البلاغة، مشيرا إلى دور الصورة وأهميتها في النص الأدبي وما يتركه من أثر في قلب السامع: ((والبلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن وإنما جعلنا المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضة خلقا لم يسم بليغا وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى)) (العسكري، ١٩٥٢م، ١٩).

وبهذه المقدمة فهنا نقصد بالصورة تلك الصور البلاغية التي استخدمها الإمام السجاد عليه السلام في ديوانه. إليك بعض النماذج منها:

قال الإمام مشبها الذنوب في كبرها وعظمها بالجبال العظيمة، التي لا يطيق الإنسان حملها إذ قال:

فكيف تطيق يوم الدين حملاً ... لأوزار كبائر كالرواسي؟

أو قال عليه السلام مستخدما التشبيه في بيان صورة الناس يوم القيامة إذ شبههم بالفراش وهم حيارى وهذه الصورة من القرآن الكريم كما سنشير إليها في اقتباس الإمام من القرآن:

عظيم هوله و الناس فيه حيارى مثل مبثوث الفراش

وفي صورة أخرى لبيان عظمة يوم القيامة وهول الناس فيه صور الناس أغناما ترعى في مرعى آمن وكلها مشغولة بعمله عن غيره ولكن ما إن رأت شيئا مفزعا حتى تشتت وتفرقت:

فولوا عليه معولين وكلّهم لمثل الذي لاقى أخوه محاذرُ

كشاء رتاع آمنات بدا لها بمديةِ باد للذراعين حاسرُ

يصور الإمام السجاد عليه السلام الدنيا معبرا للوصول إلى الآخرة ولذلك أهل الدنيا مسافرون لا يقومون هنا إلا أياما معدودات فلا بد من التزود بالزاد الذي يعينهم في الطريق:

ونحن و كلّ من فيها كسفر دنا منّا الرحيلُ على وفاز

كما يصورها ظلا يزول مع النهار:

هل الدنيا وما فيها جميعا سوى ظل يزول مع النهار

وهل صورة أدل من هذه الصورة لبيان زوال الدنيا وعدم بقاءها؟! فالإمام يراها فيئا وظلا والظل من ميزاته أنه يبقى مادام النور باق ولكن ما إن يزول الوضوء حتى يمحو الظل. وقال في رثاء أبيه مشبها رأسه الشريف بالبدر:

وقد رفعوا رأسا فوق ذابل ما البدر يبدو في علو سماء

والمراد بهذا التشبيه تبيين ضلال الناس وغفلتهم وتخاذلهم. لأن الكلمات لا تخلو من إمكانية التوسع في المعاني عن طريق المجاز والتشبيه والاستعارة (عمر، ١٩٩٨م، ٢٣٥) وكلها تعتمد على قوة الخيال الذي يتمتع به الشاعر فدور الشاعر نقل الكلمات من حيز المباشرة والتقريرية إلى عالم التأويل فالشاعر حينما يتعامل مع اللغة فإنه يتعامل مع كائن حي يتجدد (العوادي، ١٩٨٥م، ١٦١).

ففي بيت آخر يستخدم الإمام السجاد عليه السلام الاستعارة مشبها الحكومة / الخلافة بجسد له رأس وذنب ومع أن أهل بيت النبي عليهم السلام رأس هذا الجسد لمكانتهم العالية ولكن لعجب

كل العجب أن الذين لا يستأهلون الخلافة وهم في دون مقامهم كالأذناب ولكنهم مقدمون على الرؤوس:

ساد العلوج فما ترضى بذا العرب وصار يقدم رأس الأمة الذنب

وقال مصورا الدنيا المتاع القليل الذي قد تفرق بين أنياب السباع، وكأنه عليه السلام صور الذين يتكالبون على الدنيا بالسباع الضارية:

وصار قليلها حرجاً عسيراً تشتت بين أنياب السباع

وقال الإمام السجاد عليه السلام مناجيا رب العالمين مصورا الرب ملكا يفد الوفود إليه وإنه حي قيوم لا ينام:

قد نام وفدك حول البيت قاطبة وأنت وحدك يا قيّوم لم تنم

وقد استعار الوفد لرب العالمين وواضح أن الوفد من لوازم الملك.

٥- ٥- الاقتباس من القرآن الكريم:

إذا كان التعبير القرآني هو التعبير الوحيد الفريد في علوه وسموه ولما كان أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن، فلا شك أنه يبرز في كلامهم ويتضح في أساليبهم وقد ظهر تأثر الإمام السجاد عليه السلام بالقرآن الكريم لا في أدعيته فقط، بل في أشعاره. إليك بعض نماذج من هذا التأثر وقد ذكرنا البيت أولا وبعده الآية التي اقتبس الإمام منها ألفاظ بيته أو مضمونه وفحواه:

وألفى كل صالحة أتاها وسيئة جناها في الكتاب

يذكرنا البيت بالآية الكريمة: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف ١٨: ٤٩). كما أن البيت التالي مقتبس من الآية نفسها:

وكل الذي أسلفت في الصحف مثبت يجازي عليه عادل الحكم قاهر

وما ترجو النجاة به وشيكا وفوزا يوم تؤخذ بالنواصي

العبارة ((تؤخذ بالنواصي)) مأخوذة من الآية: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن ٥٥: ٤١).

هو اليوم الذي لا ودّ فيه ولا نسب ولا أحد يواسي

مضمون البيت يدلنا على الآية: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون ٢٣: ١٠١).

وكيف يلذ العيش من هو موقن بموقف عدل حين تبلى السرائر

فعبارة ((تبلى السرائر)) من الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق ٨٦: ٩).

ستألفك الندامة عن قريب وتشهق حسرة يوم المساق

((يوم المساق)) مقتبس من القرآن الكريم: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة ٧٥: ٣٠).

تعزّ فكل للمنية ذائق وكل ابن أنثى للحياة مفارق

ففحوى البيت يذكرنا بالآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء ٢١: ٣٥).

وقطعت الأسباب من كل ظالم يقيم على إصراره وينافق

فعبارت ((قطع الأسباب)) مقتبس من القرآن الكريم إذ قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة ٢: ١٦٦).

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم يا كاشف الضر والبلوى مع السقم

فالبيت يشير إلى الآية: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل ٢٧: ٦٢).

وإن متاع دنيانا قليل وما يجدي القليل من المتاع

مضمون البيت وألفاظه مقتبس من القرآن: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران ٣: ١٩٧).

اقتباس الإمام الكثير من الآيات القرآنية ليدلنا على أنه وال بيت النبي (صلوات الله عليهم أجمعين) قد أورثوا علوم رسول الله وأنهم رفقاء القرآن لا ينفصلون عنه فهم مرآة

عاكسة للقرآن ولعل حديث الثقلين خير دليل على ذلك، فهم عاشوا حياتهم مع القرآن في بيت يُتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار.

الخاتمة والتوصيات:

من خلال القراءة المتأنية لأشعار الإمام السجاد عليه السلام ودراستها الموضوعية والفنية ظهرت لنا عدة نتائج منها:

- التأمل في معجم الإمام الشعري يدلنا على اختيار الإمام المفردات التي ترسم المعاناة والمأساة التي أرقته؛ ألا وهي كارثة الطف.
- الإمام السجاد عليه السلام ضرب أروع الأمثلة في تجسيد الخلق المحمدي، في سلوكه وكلامه وشعره.
- قد ظهر التكرار في ديوان الإمام السجاد عليه السلام بوصفه وسيلة من وسائل تحسين اللفظ وتوكيد المعنى.
- خرج الاستفهام في أشعار الإمام السجاد عليه السلام عن معناه الحقيقي، فبدأ يدل على معاني النفي، والتقرير، والتوبيخ، والتعجب.
- والألفاظ لها دلالة على حالة الشاعر النفسية التي يمر بها في تجربته الشعرية والإمام السجاد عليه السلام بوصفه هنا شاعرا لا يستثنى من الأمر فنلاحظ أنه عندما يرثي على شهداء كربلاء ويكون في موضع الحزن عليهم فالغالب ما يختار اللينة والرقيقة من الألفاظ. وعندما يتحدث عن ذم الأعداء تكون الألفاظ قوية جزلة.
- أما غموض الألفاظ ووضوحها فثمة لا بد من الإشارة إلى أن الإمام السجاد عليه السلام في شعره لا يميل إلى الغريب من الألفاظ، لأن استخدام الشعراء الغريب من الألفاظ يُفسَّر غالبا لثقافتهم التقليدية ورغبتهم في إظهار مقدرتهم الشعرية وتمكنهم من اللغة ولكن الإمام لم يقصد كل هذا ولذلك اجتنب عن الألفاظ الغريبة الصعبة في شعره.
- استخدم الإمام التضاد والتقابل في الصور لتعميق المعنى وتأكيده في نفس المخاطب، وكذلك لبيان شمولية المعنى ففي اجتماع شيء ونقيضه يبرز كل منهما جمال الآخر.

- أما الاقتباس من الآيات الكريمة القرآنية فله ظهور جلي في شعر الإمام السجاد عليه السلام، وذلك لو يدل على شيء ليدل على التصاق الإمام التام بالقرآن، وعدم تفرقه عنه.

- أما بالنسبة إلى القوافي ونظرا إلى دورها البارز في تأكيد المعنى ((باعتبارها النهاية البارزة في البيت بحيث يصبح الصوت النغمي متوافقا مع الألفاظ المبثوثة في بقية البيت لتنهض بغاية مفردة تتوج بإدخال القارئ إلى صميم التجربة الشعرية)) (عصفور، ١٩٨٢م، ٤٠٧)، فنلاحظ أن الإمام يعتمد كثيرا على استخدام الحروف التي تساعده على ترسيم جو الحزن والشجن والهم التي قد ترسخت في قلب الإمام وخاصة بعد كارثة عاشوراء.

ونختم البحث بإشارة إلى بعض التوصيات؛ منها:

- إجراء دراسات مختلفة للمضامين التربوية في الأشعار المنسوبة للأئمة الأطهار عليهم السلام.

- دراسة أشعار الأئمة عليهم السلام من منظور بلاغي، أدبي، لإظهار جماليات كلامهم.

- تضمين الكتب المدرسية والكتب التي تتوفر لمتعلمي اللغة العربية غير الناطقين بها أشعار الأئمة عليهم السلام.

الملخص:

لا شك في أهمية وضرورة العودة إلى المنابع الأصيلة في فكر الأئمة الأطهار عليهم السلام وخاصة في مجال التربية والعقيدة والثقافة. فالمتأمل في تراث الأئمة يجد ما يلبي حاجات العصر لأن فكرهم ينطلق من تراث أهل البيت النبوي الشريف. ومما وصل إلينا من هذا التراث يندرج تحت الأدب كالأشعار والوصايا التي خلدها الأئمة بأسلوب بلاغي راق.

ومن جهة أخرى فهناك أشعار جُمعت في ديوان منسوب إلى الإمام السجاد عليه السلام، والذي يستهدف البحث هذا دراسته من الناحيتين الموضوعية والفنية، مستخدما المنهج الوصفي ـ التحليلي.

ومن أهم ما حصل البحث عليه يدل على بذل الإمام اهتمامه الخاص بالمشروع التربوي، ولذلك قد ضمّن أشعاره كثيرا من الوصايا الأخلاقية، والمضامين التربوية كترك

الدنيا، والزهد فيها، البر بالوالدين، ضرورة إصلاح النفس وتربيتها، الدعوة إلى ترك الآثام واقتراف المعاصي و.. كما قد اهتم بقضية عاشوراء، مبينا حزنه وشجنه لما حلت بأهل البيت من كارثة، هاجيا بني أمية بما ارتكبوا من جريمة في حق أهل البيت عليهم السلام، مشيرا إلى عظمة المصيبة، ذاكرا حبه لشهداء الطف، وذلك كله بألفاظ سهلة سلسة بعيدة كل البعد عن الغموض والإبهام، مستخدما الصور البيانية، والمحسنات البديعية كالتضاد.

الكلمات الأساسية: الإمام السجاد عليه السلام، الشعر، المستوى اللغوي، عاشوراء، البلاغة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الحسين. علي عليه السلام. (٢٠٠٠م). ديوان الإمام السجاد زين العابدين. تحقيق ماجد بن أحمد العطيّة. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (د.ت). مقدمة ابن خلدون. القاهرة: دار الشعب.
- ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق. (١٩٦٣م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تح: محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٦٨م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- إسماعيل، عز الدين. (١٩٧٨م). الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية). القاهرة: دار الفكر العربي.
- الأسواني، أبو إسحاق. (١٣٧٤هـ). نور العين في مشهد الحسين عليه السلام. القاهرة: نشر مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده.
- الأميني النجفي، عبد الحسين أحمد. (١٣٩٠هـ). الغدير في الكتاب والسنة والأدب. ط ٢. طهران: دار الكتب الإسلامية.
- البطل، علي. (١٩٨٠م). الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري. بيروت: دار الأندلس.
- الجلالي، السيد محمد رضا. (١٤١٨هـ). جهاد الإمام السجاد عليه السلام. قم المقدسة: دار الحديث.
- الحر العاملي، محمد بن الحسن. (١٤١٢هـ). وسائل الشيعة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الرازي، أبو حاتم. (١٩٥٧م). الزينة في الكلمات الإسلامية العربية. القاهرة: د.ن.

- الرباعي، عبد القادر. (١٩٨٤م). الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق. الرياض: دار العلوم للطباعة.

- الصدوق، محمد ابن علي. (١٣٧٨). عيون أخبار الرضا عليه السلام، تهران: انتشارات جهان.

- العاني، سامي مكي. (١٩٩٦م). الإسلام والشعر. الكويت: دار المعرفة.

- العسكري، أبو هلال. (١٩٥٢م). الصناعتين الكتابة والشعر. تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

- العوادي، عدنان حسين. (١٩٨٥م). لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية. بغداد: دار الحرية.

- القرطجاني، أبو الحسن قاسم. (١٩٦٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تح: محمد الحبيب ابن الخوجة. تونس: د.ن.

- القزويني، مريم سيد أمير. (٢٠١١م). القيم الأخلاقية في سيرة ودعاء الإمام زين العابدين. بغداد: مؤسسة الرافدين.

- القمي، عباس. (٢٠٠٧م). منتهى الآمال فى تواريخ النبي و الآل. ترجمة وتحقيق: هاشم الميلاني، د.م: دار الجوادين.

- المجلسى، محمد باقر. (١٤٠٣هـ). بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار أئمة الأطهار عليهم السلام. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- شريف كاشاني، حبيب الله بن علي. (١٣٨٥.ش). تذكرة الشهداء. قم: مدين.

- عصفور، جابر. (١٩٨٢م). مفهوم الشعر. بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم.

- عمر، أحمد مختار. (١٩٩٨م). علم الدلالة. القاهرة: عالم الكتب.

- فروخ، عمر. (١٩٦٩م). تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار العلم للملايين.

- لجنة التاريخ في المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية. (١٤٢٣هـ). تأريخ الإسلام. قم المقدسة: د. ن.

- مطلوب، أحمد. (١٩٨٣م). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. بغداد: المجمع العلمي العراقي.

- نالينو، كارل. (د.ت). تاريخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر أمية. القاهرة: دار المعارف.